الفصل الأول : التنظيم الإداري في عهد عمر بن الخطاب

إن الكفاءة الإدارية عند أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين أثبتت صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وذلك من خلال طريقة تعيينه للولاة والشروط التي يمليها عليهم ، فإذا خالفوا هذه المبادئ عزلهم ، واستحداثه لدواوين لتسهيل مهمة التنظيم ، وتحديد إيرادات الدولة ونفقاتها ، وهذا ما سنتطرق إليه من خلال المباحث الآتية .

المبحث الأول: تقسيم الدولة إلى ولايات:

المطلب الأول: الولايات وولاتها

عندما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وذلك باستمرار الفتوحات الإسلامية ، حيث تم فتح العراق والشام ومصر ، وهذا ما فرض عليه وضع نظام إداري جديد وملم بهذا الاتساع ، والذي يشرف على تنظيم موارد الدولة ، فعمل على تقسيم الدولة إلى ولايات أهمها :

1- ولاية مكة المكرمة :

عين على هذه الولاية (محرز بن حارثة بن ربيعة) ، ثم (جدعان التميمي) ، ثم (نافع بن الحارث الخزاعي) ، توفي عمر ونافع والي على مكة ، ومن الأحداث التي ذكرت في عهد هذا الوالي : شرائه دار صفوان بن أمية بغرض جعلها سجنا ، ومن مميزات هذه الفترة شراء بعض الدور المجاورة للحرم لتوسعته ، حيث أمر بهدمها و إدخالها ضمن حرم المسجد ، وبني حوله جدران قصيرة ، وقد كانت هذه الولاية ملتقى للأمراء والولاة من مختلف أقطار الدولة مع الخليفة عمر بن الخطاب في موسم الحج ، وبالتالي كان لها دور أساسي في الدولة الإسلامية .

2 – ولاية المدينة :

كان الخليفة هو من يتولى هذه الولاية ،لأنها كانت عاصمة الدولة الإسلامية ، ونظرا لإقامة الخليفة فيها أدار شؤونها بنفسه ، وعند غيابه كان يستخلف من ينوبه في ذلك ، وقد استخلف عمر عن المدينة (زيد بن ثابت) ، و(علي بن أبي طالب) ، وبهذا يظهر لنا أن عمر سار على ما سار عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) واكتسبت المدينة دورا فعال في الدولة الإسلامية حيث أنها تعتبر مقر للخليفة ، ومصدر الأوامر للأقاليم الإسلامية ، ومنطلق الجيوش الفاتحة ، وهي مقر لإقامة الكثير من الصحابة (رضوان الله عليهم) ، والذين كان عمر يمنعهم من الانتشار في الأمصار لحاجته لمشورتهم ، ولذلك كان يوفد إليها الكثير من طلاب العلم الذين كانوا يأخذون القرآن والسنة وفقههما من أفواه الصحابة .

3 – ولاية الطائف :

كان الوالي عليها عثمان بن أبي العاص منذ عهد الرسول ﷺ ، حيث أقره على ذلك أبو بكر (رضي الله عنه) ، ثم أقره على ذلك عمر لمدة سنتين من خلافته ، ولم يعزله بل تاقت نفسه للجهاد ، فكتب لعمر يستأذنه في ذلك فقال له: " أما أنا فلا أعزلك ولكن استخلف من شئت " [1] فاستخلف رجلا من أهل الطائف مكانه ، وعين عثمان بن العاص على عمان والبحرين ، ويذكر أن والي عمر على الطائف حين وفاته كان سفيان بن عبد الله الثقفي ، وقد كان بينه وبين أمير المؤمنين مكاتبات تتعلق بأخذ الزكاة من الخضر و الفواكه ومن العسل وهذا يدل على كثرة المزارع ووفرة الإنتاج الزراعي في الطائف أيام عمر بن الخطاب ، حيث امتازت في هذه الفترة بالاستقرار، وكانت متنفسا لأهل مكة يقدمون إليها في فصل الصيف ، واعتبرت أحد أهم المدن الرئيسية التابعة لدولة الإسلامية .

[1] – راغب السرجاني ، موقع قصة الإسلام ، إدارة بن الخطاب .http://islamstary .com/ar يوم 2013/04/17

4 – ولاية اليمن :

كان والي اليمن في عهد عمر بن الخطاب يعلى بن أمية ، حيث كان والي عليها في عهد أبي بكر الصديق ﷺ ، أقره عمر بن الخطاب على ذلك ، وبقي والي عليها حتى وفاة عمر ، ويذكر المؤرخون بعض الوقائع في هذه الولاية ، حيث وقعت ليعلى بن أمية بعض الحوادث مع الأهالي في اليمن إضافة إلى بعض الشكاوي التي تقدموا بها إلى عمر بن الخطاب ضده ، مما استلزم استدعائه إلى المدينة المنورة عدة مرات للتحقيق معه من طرف عمر ، وفي أثناء غيابه كان عمر يستخلف مكانه من يقوم بعمله ، وقد كانت بينه وبين وعمر عدة مكاتبات تتعلق بالزكاة ، ويذكر يعلى بن أمية ضمن الولاة الذين قاسمهم عمر أموالهم في أواخر خلافته ،ومن ولاة عمر على اليمن (عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي) ، ولعله كان والي على منطقة محددة من اليمن وهي (الجند) ، كما صرح ذلك الطبري في كتابه ، لقد لعب أهل اليمن دورا أساسيا في حركة الفتوح أيام عمر ، فاشتركوا في فتح الشام والعراق ومصر، وعند رسم الأمصار الإسلامية الجديدة في العراق و البصرة والكوفة ، حيث نزلتها الكثير من القبائل اليمنية ، واعتبرت اليمن كذلك من المدن الرئيسية في الدولة الإسلامية آنذاك .

5– ولاية البحرين :

كان والي عمر على البحرين هو(العلاء بن الحضرمي) في بداية خلافته ، لأنه كان والي عليها أيام أبي بكر (رضي الله عنه) ، وأقره عمر في بداية عهده ، واستمر على هذا الحال حتى السنة الرابعة عشر هجرية على أرجح الأقوال ، وقد أشترك العلاء في الجهاد المبكر في نواحي فارس ، وكان له دور رئيسي في ذلك ، وقد أصدر عمر بن الخطاب قرار بعزله ونقله إلى ولاية البصرة ، إلا أن العلاء كره هذا القرار فتوفي قبل أن يصل إلى البصرة، وبعد عزل العلاء تولى ولاية البحرين عثمان بن أبي العاص ،

حيث أخذ يجاهد ما يليه من بلاد فارس، حتى وصل في فتوحاته إلى نواحي السند، وصدرت أوامر من الخليفة عمر إليه يأمره بالتعاون في فتوحاته مع والي البصرة (أبي موسى الأشعري) ، فأصبحت جيوشهما تتعاون في غزو فارس عن طريق البصرة ، وتولى ولاية البحرين بعد عثمان بن أبي العاص (عياش بن أبي ثور) ، غير أن فترته لم تطل ، وتولى بعده (قدامه بن مضعون) ، فمدحه الناس ، إلا أنه في أواخر ولايته أتهم بشرب الخمر ، وقد ثبت ذلك عليه ، فأقام الفاروق عليه الحد وعزله ، فتولى بعده (أبو هريرة) وقد كان يتولى بعض المسؤوليات في عهد ولاية قدامه ،ثم تولى عثمان بن أبي العاص ثانيتا ، وبقي حتى وفاة عمر ، وقد وردت في كثير من النصوص ولاية البحرين مضافة إليها عمان و اليمامة ، وكانت هذه الولاية مصدر رئيسيا للخراج و الجزية ، وهذا ما يدل على ثرائها في هذا العصر ، وشاركت قبائل البحرين المسلمة وأمراؤها في فتح بلاد فارس والمشرق .

6- ولاية مصر:

كان عمرو بن العاص والي عليها ، وقد كان هو من فتحها وأقره عمر على ولايتها ، وأستمر فيها والي حتى توفي عمر رغم اختلافه معه في بعض الأحيان ، مما دفع إلى تهديد الخليفة له بالتأديب ، ومن الملاحظ في هذه الولاية تدخل عمر بن الخطاب في شؤونها كنمط من النظام الرئاسي في الحكم ، وما يلاحظ كذلك هو استفادة عمرو بن العاص من خبرة الأقباط في قضايا الخراج و الجزية واستخدامهم في ذلك ، كانت هذه الولاية أرضا خصبة لانتشار الإسلام نظرا لما ظهر فيها من عدل بين الناس وتراحم وكانت الأمور الإدارية تمضى بطريقة بسيطة من طرف عمرو بن العاص ، وقد يوجد ولاة مساعدين له في بعض المناطق الأخرى التابعة له ،لكنه هو الوالي الرئيسي لهذه الولاية أمام عمر بن الخطاب .

7- ولاية الشام:

تكونت من عدة ولايات ،حيث تولاها (خالد بن الوليد) في عهد أبي بكر الصديق ﷺ،غير أنه عزل بعد استخلاف عمر بن الخطاب ، وولي هذه الولايات (أبو عبيد بن الجراح)،وقد كان أميرا لأمراء الشام ومسؤولا مباشرا عنهم ، ووالي على الجماعة ، وأخذ في تنظيم أمورها وتعيين أمراء على المناطق التابعة له ،فأقر بعض الأمراء السابقين وعزل بعضهم ،ومن هذه الولايات (فلسطين: وأميرها يزيد بن أبي سفيان) ، (الأردن: وأميرها شرحبيل بن حسن) ، (دمشق: وأميرها خالد بن الوليد)، (حمص: وأميرها حبيب بن سلمة ، ثم عزل وعوض بعبد الله بن قرط الثمالي) ، تولى بعد وفاة (أبو عبيد بن الجراح،معاذ بن جبل) ، وبعد (معاذ ،تولى يزيد بن أبي سفيان) ، حيث كانت فترة ولايته قصيرة ،ثم أستخلف بعده (معاوية بن أبي سفيان) ، الذي عينه أخوه يزيد وأقره الخليفة على ذلك ،أجرى عمر تغييرات على إدارة الشام بعد وفاة يزيد ،فحد من صلاحيات معاوية في القضاء والصلاة .

8- ولايات العراق وفارس:

كانت الولاية تحت إمارة (المثنى بن حارثة الشيباني) أيام أبي بكر ، فلما تولى الخلافة عمر عزله وعين مكانه (أبا عبيده بن مسعود الثقفي) ، ومع عزل المثنى إلا أنه كان جنديا مخلصا ، حيث أبلى بلاء حسنا مع أبي عبيده في معاركه ، وبعد استشهاد أبي عبيده عاد المثنى إلى القيادة ، ثم تولى قيادة جيوش العراق سعد بن أبي وقاص ، وقد تأثر المثنى بجروحه يوم معركة الجسر ، فمرض منها ومات قبل أن يصل سعد بن أبي وقاص إلى العراق ، وفي هذه المرحلة بدأت البصرة تظهر على مصرح الأحداث كولاية ، إلا أن انتصار المسلمين في القادسية وسقوط المدائن في يدهم يعتبر بداية مرحلة جديدة وقوية في بلاد

العراق ، بداء فيه تنظيم الولايات يأخذ شكلا معينا وبارزا ، تتضح فيه الملامح العامة سواء في البصرة أو الكوفة .

9 – ولاية البصرة :

عين عليها (شريح بن عامر) ، وبعد مقتله في إحدى المعارك عين عمر بن الخطاب (عتبة بن عزوان) خلفا له ، وهذا في السنة الرابعة عشر هجرية ، وتعتبر ولاية عتبة على البصرة مرحلة تأسيسية وهامة في حياة هذه الولاية ، فقد كانت حافلة بالأحداث ، حيث قام بمجموعة من الفتوحات على ضفتي دجلة والفرات ، إلا أن عتبة ذهب إلى المدينة ليستعفى من عمله في هذه الولاية ، ولكن عمر أبى ولم يتركه فرجع ومات في الطريق ، ثم تولى بعده (المغيرة بن شعبة) ، وهو أول من وضع ديوان البصرة واستمر في الولاية عليها إلى أن عزله عمر بعد اتهامه بالزنا وقد ثبتت براءته وجلد الشهود ، وقد قام عمر بعزل المغيرة من باب الاحتياط و المصلحة ، وبعد عزل المغيرة تولى أبو موسى الأشعري الولاية على البصرة .

10 – ولاية الكوفة :

أنشأت بأمر من عمر بن الخطاب من طرف (سعد بن أبي وقاص) ، وكان والي عليها وعلى المناطق المجاورة لها،حيث امتدحه العقلاء من الناس وأعجبوا بحكمه ، غير أنه واجه شكاوي من بعض العامة فعزل ، وعين مكانه (عمار بن ياسر) على صلاة ، وعين معه مجموعة من القادة يساعدونه ، لهذا اختلف الوضع عما كان عليه أيام سعد إلى حد ما ، وعزل عمار بن ياسر وعين مكانه (جبير بن مطعم) ، غير أنه عزل قبل وصوله وعين (المغيرة بن شعبة) ، واستمر هذا الأخير والي على الكوفة حتى وفاة عمر .

11– ولاية المدائن :

كانت هذه الولاية عاصمة كسرى ، فتحت من قبل (سعد بن أبي وقاص) واستقرها فترة من الزمن ،ثم أنتقل منها إلى الكوفة بعد تمصيرها ، وعين مكانه (سلمان الفارسي) ، الذي كان يرفض الولاية فأجبره عمر على ذلك ، وقد سار فيها سيرة حسنة ، و عزل باستعفائه منها ، وعين مكانه(حذيفة بن اليمان) الذي أستمر في الولاية عليها حتى وفاة عمر ، واستمر في ذلك طيلة خلافة عثمان بن عفان ﷺ .

12 – ولاية أذربجان:

كان أول ولاتها (حذيفة بن اليمان) ،ثم نقل إلى المدائن ، وتولى بعده (عتبة بن فرقد السلم) ، وقد كانت بينه وبين عمر عدة مراسلات ، "ومما يذكر عنه أنه بعث بنوع من الحلوى مصنوعة هناك إلى عمر فقال لرسول: هل أكل منها شعبه ؟ فقال الرسول: لا إنما خصك بها ، فأمر عمر بإرجاعها وكتب إلى عتبة أنه ليس من كدك ولا كد أبيك ، فاشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع في رحلك ..." [1]

المطلب الثاني : محاسبة الولاة وتفتيش الولايات

الفرع الأول: محاسبة الولاة

كان عمر شديد مع عمال الدولة الإسلامية ، وكان يوصي بأهالي الأقاليم خيرا ، يقول الطبري " أن عمر بن الخطاب ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فقال: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، إني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقسم فيهم فيئهم ، وأن يعدلوا ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلي ."[2]

[1]- موقع قصة الإسلام ، مرجع سابق ، يوم 2013/04/17

[2]– الموقع السابق

"عن عمار بن خزيمة بن ثابت قال: كان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملا كتب عليه كتاب ، واشهد عليه رهطا من الأنصار أن لا يركب برذونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول: اللهم أشهد ."[1]

" وعن بن سعد قال: كان عمر بن الخطاب قد استعمل النعمان على ميسان وكان يقول الشعر فقال:

ألا هل أتى الحسناء أن خليلها بمسان يسقي من زجاج وحنتمي

إذا شئت عنتني دهاقين قرية ورقاصة تحثوا على كل منسمي

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقيني ولا تسقيني بالأصغري المتثلمي

لعلى أمير المؤمنين يسوئه تنادمنا بالجوسقي المتهدمي

فلما بلغ أمير المؤمنين قوله قال: نعم والله ، إنه ليسوئني ، من لقيه فليخبره أني قد عزلته ، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله ، فقدم على عمر فقال : والله ما صنعت شيء مما قلت ، ولكن كنت امرئ شاعر ، وجدت فضلا من قول فقلت فيه شعر، فقال عمر: والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت ، وقد قلت ما قلت ."[2]

"وعن عاصم بن بهدلة قال : كان عمر بن الخطاب جالسا مع أصحابه ، فمر به رجل فقال له : ويل لك يا عمر من النار ! فقال رجل آخر يا أمير المؤمنين ألا ضربته ، فقال له رجل أظنه علي (رضوان الله عليه) ألا سألته ؟ فقال عمر: عليا بالرجل ، فقال له عمر: لما قلت هذا ؟ قال الرجل : تستعمل العامل وتشترط عليه شروطا ولا تنظر في شروطه ، قال وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر ، اشترطت عليه"[3]

---

[1]- أبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي القريشي ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، دار الكتاب الحديث (القاهرة ، الكويت ، الجزائر)، ص 91

[2] - المرجع السابق ، ص94

[3]- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، مرجع سابق ، ص94

"شروطا فترك ما أمرته به ، وانتهك ما نهيته عنه ، فأرسل عمر إليه رجلين فقال : سلا عنه فإن كان كذب عليه فأعلماني ، وإن صدق فلا تملكاه من أمره شيء ، حتى تأتيان به فسألا عنه فوجداه قد صدق عليه ، فاستأذنا بابه فقال : إنه ليس عنه إذن ، فقالا : ليخرجن إلينا أو لنحرقن بابه ، وجاء أحدهما بشعلة من نار ، فلما رأى ذلك خرج إليهما، فقالا: إنا رسولا عمر لتأتيه ، قال: إنا لي حاجة بتزود ، قالا: ما أنت بالذي تأتي أهلك ، فاحتملاه فأتيا به عمر فسلم عليه ، فقال: من أنت ويلك؟ قال: عاملك على مصر ، وكان رجلا بدويا ، فلما رأى من ريف مصر أبيض وسمن ، فقال: استعملتك وشرطت عليك شروطا ، فتركت ما أمرتك به وانتهكت ما نهيتك عنه ، أنا والله أعاقبنك عقوبتا أبلغ إليك فيها ، إيتوني بدراعة من كساء وعصا وثلاثة مئة شاة من شاة الصدقة ، قال: البس هذه الدرع وقد رأيت أباك ، وهذه خير من درعته ، وهذه العصا خير من عصاه ، أذهب بهذه الشاة فارعها في مكان كذا وكذا ، وذلك في يوم صائف ، ولا تمنع السائل من ألبانها شيء ،واعلم أنا آل عمر لم نصب من شاة الصدقة ، ومن ألبانها ولحومها شيء ، فلما أمعن رده ، وقال له: أفهمت ما قلته لك ؟ وردد عليه الكلام ثلاثة ، فلما كان في الثالثة ضرب بنفسه الأرض بين يديه ، وقال: ما أستطيع ذلك ، فإن شئت فاضرب عنقي ، فقال : فإن رددتك فأي رجل تكون؟ قال: لا ترى إلا ما تحب ، فرده فكان خير عامل ."[1]

[1]- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، مرجع سابق ، ص94

الفرع الثاني : تفتيش الولايات

كان عمر بن الخطاب يتابع أمور الدولة بنفسه على الدوام ، فلم يكتف بأن يحسن اختيار عماله ، بل كان يبذل أقصى الجهد لمتابعتهم بعد أن يتولوا أعمالهم ، وليطمئن على حسن سيرتهم ،ومخافة أن تنحرف بهم نفوسهم ، وكان شعاره لهم: "خير لي أن أعزل كل يوم واليا من أن أبقي ظالما ساعة من نهار." كما أستمر يطلب منهم على الدوام أن يرسلوا وفدا من أهل البلاد ليسألهم عن بلادهم ، وعن الخراج المفروض عليهم ليتأكد بذلك من عدم ظلمهم .

كان عمر يرسل البريد إلى الولاة في الأمصار، وكان يأمر عامل البريد عند عودته إلى المدينة ،أن ينادي في الناس من الذي يريد إرسال رسالة إلى أمير المؤمنين ؟ حتى يحملها إليه دون تدخل من والي البلاد ، وكان صاحب البريد نفسه لا يعلم شيء عن هذه الرسائل، وعليه يكون المجال مفتوحا أمام الناس لرفع أي شكوى أو مظلمة إلى عمر نفسه ، دون أن يعلم الوالي أو رجاله بذلك ، وحين ما يصل حامل البريد ينثر ما عنده من رسائل أمامه فيقرئها عمر ويرى ما فيها . "كان محمد بن مسلمة الأنصاري يستعين به الفاروق في متابعة الولاة ومحاسبتهم ، والتأكد من الشكاوى التي تأتي ضدهم، فكان موقع محمد بن مسلمة كالمفتش العام في دولة الخلافة، فكان يتحرى على حقائق أداء الولاة لأعمالهم، ومحاسبة المقصرين منهم، فقد أرسله عمر لمراقبة ومحاسبة كبار الولاة، والتحقيق في الشكايات ومقابلة الناس والسماع منهم ،ونقل آرائهم عن ولاتهم إلى عمر مباشرة، وكان مع محمد بن مسلمة أعوان."[1]

" عن الحسن بن علي ﷺ قال: قال عمر بن الخطاب : لإن عشت إن شاء الله لأسرنّ في الرعية حولا، فإن أعلم أن لناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا يصلون إلي ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي ،

[1]– موقع قصة الإسلام ، مرجع سابق ، يوم 2013/04/17

فأسير إلى الشام ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة ، فأقيم بها شهرين ."[1]

المطلب الثالث : السلبيات و الإيجابيات في التنظيم العمري

الفرع الأول : السلبيات

تتمثل في الخشونة ، وهذا ما دلت عليه قصة ابنه عبد الرحمان في مصر ، وهي كما رواها عمرو بن العاص والي مصر يومئذ حيث يقول: " دخل علي عبد الرحمان بن عمر وأبو سروعة وهما منكسران ، فقالا: أقم علينا حد الله ، فإنا قد أصبنا البارحة شرابا فسكرنا ، فزبرتهما ،وطردتهما ، فقال عبد الرحمان: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه ، فخاف إذا سمع بذلك عمر عزله . فدخل عليهم عبد الله بن عمر وأخبره عمرو الخبر ، فأدخل أخاه بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبي سروعة ، وضربهما عمرو في صحن داره فسمع بذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص أن أرسل عبد الرحمان إلي في عباءة من قتب ، فبعث به كما قال أبوه ، وكتب عمرو بن العاص كتابا إلى عمر مع ابنه عبد الله يعتذر فيه ، ويخبره فيه أني ضربته في صحن داري ، وبالله الذي لا يحلف بالأعظم أني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي و المسلم ، فقدم عبد الرحمان على أبيه وعليه عباءة لا يستطيع المشي من مركبه ، فقال عمر: يا عبد الرحمان فعلت كذا ؟ فكلمه عبد الرحمان بن عوف وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة ، فلم يلتفت إليه عمر وزبره ، فجعل عبد الرحمان يصيح: أنا مريض وأنت قاتلي ! فضربه وحبسه ، ثم مرض ومات رحمه الله ."[2]

[1]- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص96.

[2]- عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، دار النجاح للكتاب الجزائري ، ص38

فهذه القصة تبين قسوة عمر على ولده ، وهي سلبية لأن الحد أقيم مرتين على عبد الرحمان ،وهذا لا يقبله الدين ، ولا الفطرة الإنسانية .

2 – الفرع الثاني : الإيجابيات

قال رسول الله ﷺ في عمر بن الخطاب "... لم أرى عبقريا يفري فرية ..."[1] كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء ، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال ، فمن علامات العظمة التي تحي موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان في غيرها ، أولها أن تبعث كوامن الحياة ، ودوافع العمل في الأمة بأسرها ، وفي رجالها الصالحين لخدمتها ، والأحرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس ، فتعرف بالبديهة الصائبة ، والوحي الصادق ، كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر في سيرة سيدنا عمر ، فلولا الدعوة المحمدية التي بعثت كوامن العظمة في أمة العرب ، لما كنا نسمع بابن الخطاب ولا غيره .

"كان عمر رجل مهيب ، فالذين يعرفونه أهيب له من الذين لا يعرفونه ، وكان منظر جسده رائع يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه ، كان طويلا بائن الطول يرى ماشيا كأنه راكب جسيما ، صلب ، يصرع الأقوياء ،ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاد القول وفصل الخطاب ، وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله ، أثر البكاء في صفحتي وجهه ، حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان ، وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها، ويرى أن (من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه) وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات منها "ذات يوم كان جالسا فمر به رجل جميل فقال : أحسبه كأنه كان كاهنا في الجاهلية ، فكان كذلك " " وأنه رأى أعرابيا نازلا من جبل فقال : هذا الرجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعر ، لو شاء

[1] – صحيح البخاري ، كتاب المناقب، حديث رقم 3434

لأسمعكم ، ثم سأل الأعرابي: من أين قبلت؟ فقال من أعلى الجبل ، فسأله : وما صنعت فيه؟ ... قال أودعته وديعة لي ... قال: وما وديعتك ؟... قال: بني لي هلك فدفنته ..." [1]

"قال: أسمعنا مرثيتك فيه ... قال: وما يدريك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما تفوهت بذلك ، وإنما حدثت به نفسي ، ثم أنشد أبيات ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك له في حكمه كان ذا وفي قدره

قدر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد في عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته ثم قال: صدقت يا أعربي !"[2]

كان عدلا، لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه بيوت بني عدي ، الذين عولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية ، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلا بعد جيلا على الإنصاف وفصل الخطاب وجده نفيل بن عبد العزة هو الذي قضى لعبد المطلب على حرب بني أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة ، فهو عادل من عادلين وناشئ في مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء .

"إن القدرة الذهنية التي امتاز بها عمر ، وما دار بينه وبين بعض القوم من المسائلات و المحاورات ، وأنه عمل ما لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام في تاريخ بني الإنسان ، ومن الأدلة على قدرته الذهنية: هي أنه ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثلما بين العرب و الفرس وبين الفرس و القبط والسوريين ، ونصب ولاة وأنتدب قواد ، وسير بعوثا وأشرف على ميادين قتال ، وأقام نظام في الحكومة ، وراقب الرعاة والرعية فيما يعلنون وما يبطنون ، ونجح في كل ما عمل نجاحا منقطع النظير ، غير مردود إلى

[1]- عبقرية عمر ، مرجع سابق ، ص 28-29

[2]- المرجع السابق ، ص 29

المصادفة أو المغامرة ، وليس هذا كله ما يهتدي إليه رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات و الأفراد ."[1]

وهذه بعض من محاسن عمر التي لا نستطيع أن نحصيها ، لأنها كثيرة جدا ، ولن نلم بها كلها ، لأن هذا يتطلب الكثير من الجهد ، وقد تؤلف في ذلك كتب تختص في سيرته فقط .

المبحث الثاني : الدواوين

المطلب الأول : تعريفها

الديوان عند علماء اللغة هو: " مجتمع الصحف ، والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية فالديوان يعني السجل الذي تدون فيه أسماء المستفيدون من العطاء ، وهو يعني أيضا المكان الذي يحفظ فيه هذا السجل ."[2]

" إن سبب استحداث عمر بن الخطاب ﷺ لديوان أنه جاءته أموال كثيرة من البلاد المحررة ، فتحير كيف يوزعها ، فقال له علي بن أبي طالب : تقسم كل سنة ما أجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيء ، وقال عثمان بن عفان : أرى مالا كثيرا يسع الناس ،وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر ، وقال له الوليد بن هشام بن المغيرة :يا أمير المؤمنين : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوان وجندوا جنودا ، فدون ديوانا وجند جنودا، فأخذ بقوله ."[3]

"غير أن كلمة ديوان أصلها فارسي على الأرجح ، وذلك أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال : (ديوانه) ، أي مجانين ، فسميا موضعهم بهذا الاسم ، ثم حذفت

---

[1]– عيقرية عمر ، ص51

[2]– هاشم يحي الملاح ، الوسيط في السيرة النبوية و الخلافة الراشدة ، دار الكتب العلمية – بيروت ،لبنان ، ط1 سنة 2007 ، ص355

[3]– محمد رضا ، الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، ص36

الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا ، فقيل ديوان،ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمنة للقوانين و الحسابات ، وقد اختلفوا في الذي أشار على عمر بتدوين الدواوين "[1]

فقيل أنه الوليد بن هشام ، كما في طبقات ابن سعد ، وقيل خالد بن الوليد ، وقيل بل هو الهرموزان لأنه رأى أن أمير المؤمنين يبعث البعوث بغير ديوان ، وقيل أن أبا هريرة قدم إليه بمال من البحرين كثير ، فقال لناس قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدا ، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين: قد رأيت الأعاجم يدونون ديوان فدّون لنا أنت ديوان.

المطلب الثاني : تعريبها وتطويرها

كانت الدواوين تستخدم اللغة العربية منذ إنشائها ، ما عدا دواوين الخراج ، التي كانت تستخدم اللغات الأجنبية ، حيث كان ديوان الخراج في العراق يعمل باللغة الفارسية ، وفي الشام ومصر باللغة اليونانية ، وظل هذا الوضع قائما إلي أواخر عهد عبد الملك بن مروان (65هـ – 86 هـ) الذي رأي أن إبقاء أهم ديوان من دواوين الدولة وهو ديوان الخراج ، المهيمن علي الشؤون المالية يستخدم لغات غير عربية أمر شاذ ، ويجب إنهاؤه، وإذا كانت الضرورة قد فرضته عند نشأة الدولة الإسلامية لقلة خبرة العرب المسلمين بشؤون المال والجباية من ناحية، ولانشغالهم بالجهاد والفتح من ناحية ثانية، فإن تلك الضرورة قد زالت وظهر في العرب ومواليهم مهرة في هذه الأمور، كما أن الدولة استعادت وحدتها وتخلصت من كل مناوئيها، وبدأت تشهد عهد أمن واستقرار، لذلك قرر عبد الملك تعميم استخدام اللغة العربية في دواوين الخراج، وأمر بترجمتها فكلف سليمان ابن سعد الخشني الذي كان يتقلد له ديوان الرسائل، وكان يجيد اللغة اليونانية، بنقل ديوان الشام إلي اللغة العربية، فنقله في عام كامل، وقد أعطاه عبد الملك خراج الأردن لمدة عام كامل مكافأة له، مما يدل على أهمية هذا العمل واهتمام الخليفة بإنجازه

[1] – الوسيط في السيرة النبوية و الخلافة الراشدة ، ص356

أما ديوان العراق: فقد أمر الحجاج بن يوسف كاتبه صالح بن عبد الرحمن بنقله من الفارسية ، واستمرت عملية التعريب بعد عهد عبد الملك ، فترجم ديوان مصر في ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان "(85هـ – 90 هـ) وديوان خراسان في ولاية نصر بن يسار حوالي سنة 124 هـ ، ومهما يكن السبب الذي دفع بعبد الملك إلى تعريب دواوين الخراج ، فإن هذه كانت خطوة عظيمة الأهمية ، وكانت مدروسة بعناية ، بدليل أن عملية الترجمة استغرقت ما يقرب من نصف قرن ، واستمرت إلى نهاية الدولة ، ولم تكن عملا سهلا ، حيث كان على المترجمين أن يقوموا بنقل كثير من المصطلحات المالية من الفارسية واليونانية والقبطية ، وقد قاموا بهذا العمل علي درجة عالية من الإتقان . ولم تكن عملية التعريب ذات أثر عظيم من النواحي السياسة والإدارية فحسب ، بل كانت لها آثار عظيمة أخرى من النواحي الاجتماعية والحضارية ، فقد فتحت أمام العرب ميدانا كبيرا من ميادين العمل كان موصدا أمامهم وهو ميدان المال ، فبعد أن عربت الدواوين انخرطوا في العمل فيها وبرزوا في ميدانها كما برزوا في الميادين الأخرى."[1] كما أن الموظفين غير العرب الذين كانوا يقومون بالعمل في دواوين الخراج لم يستبعدوا منها ، ولكن عليهم ليحتفظوا بوظائفهم أن يتعلموا اللغة العربية.

لقد أعان تدوين الديوان وفرض العطاء أولئك العرب الأولين على أداء الرسالة التي ألقت الأقدار عليهم أداءها ، فقد كان في المدينة سجل للمسلمين الذين يستحقون العطاء من بيت المال المركزية ، وكان عمر بن الخطاب يحرص أشد الحرص على أن يصل إلى كل ذي حق حقه ، فقد روى " أنه كان يحمل سجل كل قبيلة من القبائل, ويذهب إليها بنفسه في موطنها ، ويعطى أفرادها عطاءهم في أيديهم."[2] ولم يكن من الميسور بطبيعة الحال أن تكون سجلات المسلمين بالعاصمة ، بل كانت هناك سجلات

[1]- موقع الميسر ، يوم 2013/04/29 ، الساعة 10:30 ليلا http:www moiaser . com

[2]- الموقع السابق

بالعواصم الأخرى ، وهكذا كان هناك ديوان عند والي اليمين ، وأخر في البصرة يحفظه أمير كل إقليم. وبهذا تيسر لكل مسلم أن يقبض عطاءه من البلد الذي هو فيه ، وأصبح كل والي مسئولا عن إيصال العطاء إلى أصحابه في ولايته ،كما كان عمر يوصل العطاء لأصحابه في المدينة وما حولها ، وربما استكثر بعض الولاة العطاء الموزع , فكان عمر يأمرهم بتوزيعه أياً كان قدره. "ومن ذالك كتابه إلى حذيفة ردا على كتابه الذي يقول فيه انه وزع على الناس عطاءهم وبقى شي كثير ، فكتب إليه الخليفة انه فيئهم الذي أفاء الله عليهم ، فليس هو لعمر ولا لآل عمر ! اقسمه بينهم ."[1]

– لم يكن ديوان العطاء هو الديوان الوحيد الذي أنشأه عمر ، ولكن وضع "ديوان الإنشاء " لحفظ الوثائق الرسمية ، وهناك أيضاً لم يكن ثمة ديوان رسمي قبل أن ينشئه عمر ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب إلى عماله وإلى رؤساء الدول الأجنبية في بعض المناسبات ، وكانت هذه الكتب والردود عليها تحفظ عنده في المدينة ، وصنع الصديق صنيعه ، أما في عهد عمر، فقد كثرت الكتب بدرجة غير مألوفة ، فأنشىء الديوان الخاص بها في المدينة وفي غيرها من العواصم ، وكانت دواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق تكتب بالفارسية ، ودواوين مصر تكتب بالقبطية ، ومن ثم فإن العاملين في هذه الدواوين لم يكونوا من العرب ، بل كانوا من البلاد المفتوحة من الروم أو الفرس أو القبط ، هذه الدواوين التي كانت نواة الوزارات الإسلامية و التي أرسى عمر أساسها ، فقد كانت البذرة التي تفرعت منها الدواوين الأخرى وتنوعت في عهد الأمويين والعباسين.

ففي عهد الأموية ظهرت الدواوين الآتية :

ديوان الخراج وديوان الجند ، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وديوان الرسائل، وديوان الإنشاء ، وديوان العُشْر، وديوان المستغلات ، وديوان العمال..، وكان تعريب الدواوين قراراً سياسيًا حكيمًا ،

[1]– محمد رضا، الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، سنة 2005 ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت، ص213

نتج عنه صبغ الدولة بالصبغة العربية الإسلامية ، وصارت العربية هي لغة كتابة الدواوين ولغة الدولة الرسمية ،كما انتقلت ألفاظ فارسية ورومية كثيرة إلى العربية ، وتبع تعريب الدواوين تعريب الاقتصاد ،حيث ضُرِبَتْ العملة الإسلامية الخالصة لتحل محل العملات الأجنبية (الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي).. ورصد عبد الملك أموالاً جزيلة وجوائز عظيمة لمن قاموا بترجمة هذه الدواوين ، ونقل مصطلحاتها إلى العربية وفي هذا تحرير للاقتصاد الإسلامي من التبعية الأجنبية..

لم يقتصر الديوان على توزيع الأموال وتدوينها ،حتى وإن كانت فكرة إنشاؤه قد اقترنت بهذا الدور، ولكن الديوان أصبح أوسع من ذلك ، فشمل مناحي كثيرة ، مثل البريد والشرطة والتوقيع ،حتى غدا الديوان يفهم من عنوانه أنه إدارة شؤون الدولة بشكل كامل ، وتعمد بعض الدول في الوقت الراهن على إطلاق اسم الديوان على بعض دوائرها، كما في حالة ديوان المحاسبة وديوان الخدمة المدنية في الأردن. وأحيانا يستبدل هذا الاسم ب (سلطة) كسلطة المياه أو سلطة الكهرباء أو قد يطلق عليه في بعض الدول اسم هيئة كما في مصر والعراق ، حتى أن بعض الناس في الوقت الحاضر، يطلق على المكان الذي يجلس به عقلاء من القوم اسم ديوان أو (ديوانية)، وإن سئل أحدهم عن مصدر خبر معين فإنه يقول أنه سمع ذلك في الديوان أو في ديوان فلان. وقد التصق اسم الديوان وخبراته بالفرس، لأنهم أقدم من الدولة العربية الإسلامية في تنظيمه، وقد امتلأت قصور الأمويين في بداية عهدهم بالخبراء الأجانب الذين تم استقدامهم ممن عمل في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. حيث لم تكن خبرات العرب كافية لتماشي التوسع في رقعة دولة المسلمين العربية في بداياتها.إننا إذ نلقي بعض الضوء على موضوع إنشاء الدواوين في الدولة العربية، فإننا سنلتمس الكيفية التي أخذت إدارة شؤون الدولة تتطور فيها ثم تتراجع، وهو أمر مهم لمن يود أخذ فكرة عن أسباب قوة وضعف الدولة العربية الإسلامية.

المطلب الثالـــث : أهميـتـهـــا

ديوان الخراج: أنشأه عمر بن الخطاب ﷺ وجرى فيه تسجيل مصروفات الدولة ومدخولاتها (وارداتها) من الزكاة والخراج والجزية والعُشور ، ثم ما يُفرض لكل مسلم من العطاء (لقد جعل عمر العطاء للمسلمين على أساس القرابة من الرسول ، ثم السابقة في الإسلام ونصرة الرسول) .

تمكن عمر بن الخطاب بواسطة هذا الديوان من تقسيم المدخولات على المسلمين ، والتدقيق في توزيعها و جباية المبالغ المستحقة من جزية وخراج وغيرها ، أما سبب إنشائه يعود إلى كثرة الأموال التي وصلت بيت مال المسلمين من عامل البحرين أبي هريرة ﷺ

ديوان الجند: أنشأه عمر بن الخطاب ، عندما أشار عليه أحد زعماء الفرس (الذين اسلموا) أن يضع الديوان بعد أن شرحه له ، من أعمال هذا الديوان : تسجيل أسماء الجند حتى ملامحهم أوصافهم ونسبهم ، وقبائلهم وسائر ما يميزهم ، ثم عيّن ووزع مقدارا من العطاء لكل واحد منهم.

ويتولى الديوان الإنفاق على تسليح الجند ، وإعداد المعدات الحربية وتموين الجيوش ، وبإنشاء هذا الديوان , وضع عمر بن الخطاب أساس التجنيد الإلزامي في الإسلام.

ديوان الخاتم : أنشأه معاوية بن أبي سفيان منعا لتزوير(على ذكر حادثة التزوير زمن عثمان بن عفان ﷺو الحادثة بين معاوية وعامله على العراق زياد بن أبيه) فأصبحت الرسائل تختم وتشمّع فإذا كسر الشمع عنها فقدت قانونيتها ، أصبح فيما بعد يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة أصلية عن كل ما يُوقّع من رسائل وحسابات ، وكذلك عمل الولاة ، وذلك للرجوع إليها والمطابقة والمقارنة فيما بينها ، يعتبر هذا الديوان بمثابة أرشيف في أيامنا هذه.

ديوان الأزمّة : أنشأه المهدي ، وكان عبارة عن دوائر صغيرة تشرف وتراقب أعمال الدواوين الكبيرة وتدقق في الحسابات والشؤون المالية التي يتصرف بها كل ديوان من الدواوين ،عمل هذا الديوان في العاصمة ، أما في الولايات فسُمّي بالزمام ، كما أنشأ المهدي ديوان زمام الأزمّة ، الذي ينظم في آن واحد جميع دواوين ألأزمّة ، ويوازن مابين المدخولات و المصروفات ، وصاحبه يشبه وزير المالية في أيامنا هذه .

ديوان البريد: وهذا الديوان أنشأه معاوية بن أبي سفيان ، وكان لهذا الديوان مهمتان رئيسيتان ، الأولي نقل الرسائل من دار الخلافة و إليها ، سواء كانت هذه الرسائل داخلية أو خارجية ، فالرسائل الداخلية هي التي كانت تدور بين الخلافة وولاة الأقاليم والقادة وكبار الموظفين ، والرسائل الخارجية هي التي كانت تدور بين الخلافة وبين الدول الأجنبية ،حيث كانت تقوم بعثات من دار الخلافة بحمل رسائل من الخليفة إلى ملوك الدول الأجنبية وبصفة خاصة إلي أباطرة الدولة البيزنطية ، وفي الحقيقة أصل هذا الديوان وجوهر عمله كان موجودا منذ عهد الرسول ﷺ فقد كان يرسل رسلا ومبعوثين يحملون منه رسائل إلي الملوك والأمراء المعاصرين له ، كما حدث بعد صلح الحديبية ، حين أرسل إلى كسرى وهرقل والنجاشي والمقوقس ،وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام . والجديد في الأمر أن معاوية بن أبي سفيان أنشأ لهذا النوع من العمل ديوانا خاصا ،له موظفون مخصصين، يقومون على العمل فيه و ذلك لم يكن موجود قبل معاوية ، وأما المهمة الثانية التي كان يقوم بها ديوان البريد في العصر الأموي ، فهي أن موظفي هذا الديوان كانوا عيونا للخليفة ، يراقبون له الولاة والعمال وأعمالهم ومسلكهم ، ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إليهم من ذلك ، حتى يكون الخليفة على علم بأحوال الولايات وبكل ما يدور فيها ، ومعني ذلك أن ديوان البريد كان يقوم في العصر الأموي بدور ما يسمي بالرقابة الإدارية في

الوقت الحاضر، وهو دور خطير جدا ،كلمة بريد ربما كانت من أصل يوناني بمعني المراسلات ، أما المسلمون فقد أخذوها من المسافة التي قدروها بين كل بريد و بريد ، وهي اثنا عشر ميلا ،حيث قسموا المسافات بين عاصمة الخلافة وعواصم الأقاليم إلى مسافات متساوية ، كل مسافة منها إثنا عشر ميلا ، ليسهل نقل الرسائل والأخبار بسرعة ،حيث كانت خيل البريد تحمله وتسير هذه المسافة ، فإذا وصلت إلي نهايتها وجدت خيلا أخري في انتظارها جاهزة ومستريحة فتحمله إلي مسافة أخرى ، و هكذا إلي أن يصل إلي عاصمة الخلافة إن كان وارد إليها أو إلي عواصم الأقاليم إن كان صادرا عنها ، وقد اهتم الأمويون اهتماما كبيرا بهذا الديون ، لأهميته الكبيرة في دولتهم المترامية الأطراف و لكثرة مشاكلها والخارجين عليها ، حيث كان رجال البريد كما ذكرنا يقومون بدور الرقابة علي العمال والموظفين.

ديوان الرسائل: وكان مختصا بصياغة الكتب و الرسائل و العهود التي كانت تصدر عن الخلافة إلى الولاة والعمال في داخل الدولة ، ويتلقي المكاتبات التي تصل منهم ،ويقوم موظفوه بعرضها علي الخليفة، وكان كتاب هذا الديوان يختارون بعناية كبيرة ، من بين المشهورين بالبلاغة والفصاحة والعلم بالشريعة وأحكامها واللغة العربية وآدابها ، ومن أصحاب المروءة والأخلاق الفاضلة ،وكان يراعي فيهم أن يكونوا من أرفع الطبقات حسبا ونسبا ، ومن أشهر الكتاب في العصر الأموي ،عبد الحميد بن يحي كاتب مروان بن محمد ، الذي صاغ الشروط والمواصفات التي يجب أن تتوفر في من يقوم بهذه المهمة الجليلة ، بين يدي الخفاء والأمراء ، في رسالة وجهها إلى الكتاب يعتبره المؤرخون أحسن ما كتب في هذا الباب ، ويبدو أن عمل ديوان الرسائل لم يكن مقصورا علي أمر المكاتبات الداخلية في الدولة ،بل كان ينظر أمر العلاقات الخارجية، ويشرف علي الوفود والبعثات الدبلوماسية التي كانت ترسلها الدولة الإسلامية إلى الدول الأجنبية ، ويستقبل كذلك الوفود الأجنبية التي تأتي إلي دمشق ، سواء لمجرد الزيارة أو للمفاوضات من أجل معاهدات صلح وخلافة ويقوم علي ضيافتهم وإسكانهم في بيوت الضيافة ،

وتعيين المرافقين الذي يصطحبونهم أثناء إقامتهم ويطلعونهم على المعالم المهمة في البلاد ، وعلي هذا يكون ديوان الرسائل في الدولة الأموية أشبه بديوان رئاسة الجمهورية والديوان الملكي ، وإدارات المراسم والعلاقات العامة في الدول المعاصرة.

ديوان العمال : وهو المسؤول عن جميع الموظفين المدنيين في الدولة من حيث ترتيب أعمالهم ووظائفهم ومرتباتهم ،وجميع أسماء موظفي الدواوين السابقة ما عدا ديوان الجند والعطاء ، فهو أشبه بديوان الموظفين في النظم المعاصرة ، ويذكر المؤرخين أن سجلات هذا الديوان في البصرة في ولاية عبيد الله بن زياد(55هـ-64هـ) كانت تحوي مائة وأربعين ألفا من مختلف الموظفين والعمال المدنيين .

وخلاصة القول : أن الأمويين كانوا يعملون جاهدين على تطوير دولتهم إداريا ، وإنشاء كل ما تدعوا الضرورة إلى إنشائه من الدواوين والأجهزة ، وإسناد إدارتها إلى خيرة من أهل الشرف والنسب والعلم والثقافة والمروءة والأمانة .

المبحث الثالث : التنظيم المالي

المطلب الأول : بيت المال والنقود

إن بيت المال هي الجهة التي تختص بكل ما يرد إلى الدولة أو يخرج منها ، أو بعبارة أخرى هو الجهة المعنوية المسؤولة عن تنظيم واردات الدولة ونفقاتها ، والتشريعات المنظمة لذلك ، لهذا كل مال أستحقه المسلمين ولم يتعين مالكه منهم ، فهو من حقوق بيت المال ، فإذا قبض صار بالقبض مصروفا إلى بيت المال ، سواء أدخل إلى حرزه أو لم يدخل ، لأن بيت المال عبارة عن الجهة لا عن المكان ، وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال .

إن إيرادات بيت مال المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ تتمثل بصورة أساس من خمس الغنائم التي كان يحصل عليها المسلمين في الحروب ، وكذلك من الفيء ، ففي البلدان المحررة " في عهد عمر رضي الله عنه أبقى الأراضي المفتوحة في ملك أصحابها يزرعونها ويستثمرونها كما كانوا يفعلون سابقا على أن يقوموا بأداء ضريبة الجزية للمسلمين ، وهذا الموقف في مسألة الأراضي ينجم من جملة من سياسة المسلمين في تأليف قلوب سكان البلاد المحررة ودعوتهم لتعاون معهم ، كما أنه يضمن استثمار الأراضي الزراعية بصورة جيدة ويؤمن موردا مستمرا لدولة الإسلامية بما يدفعه إليها أصحاب هذه الأراضي من ضريبة الخراج ."[1]

على الرغم من حرص الخليفة وعماله على عدم إرهاق الناس في جباية الخراج ، فإن الروايات تشير إلى أن الإيرادات السنوية لهذه الضريبة كانت كبيرة ، " فقد ذكر أبو يوسف أن جباية سواد الكوفة وحدها قد بلغ عام 22هجري (100 ألف درهم) وأشار البلاذري إلى أن خراج مصر في ولاية عمرو بن العاص بلغ (200 ألف دينار) ، وكذلك أضيفا إلى جانب الخراج ما تغله أراضي ألصوافي التي بسواد العراق والتي أصبحت مملوكة لدولة ، حيث أن هذه الأراضي كانت ملكا للأسر الحاكمة والنبلاء من

[1] – الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، ص347

الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين ، فلما قتلوا أو هربوا نتيجة لحروب التحرير انتقلت ملكية هذه الأراضي إلى الدولة ، فقامت باستغلالها و استثمارها بما يحقق المصالح العامة لدولة و المجتمع ، فقد كانت تشكل موردا هاما ، حيث بلغت في بعض السنوات أربعة ألاف ألف درهم ، وفي روايات أخرى أنها بلغت سبعة ألاف ألف درهم ، وربما كان مصدر التباين في هذين التقديرين أنهما يعودان لسنتين مختلفتين . "[1] على الرغم من الإعفاءات الكثيرة من هذه الضريبة ، والالتزام بأوامر عمر في الرفق بأهل البلاد المحررة إلا أنها كانت تدر أموالا كثيرة لبيت المال .

بعد أن فرغ الخليفة عمر من تنظيم ضريبة الخراج و الجزية ، استشار بعض الصحابة بشأن وضع رواتب سنوية للمقاتلين وأسرهم وذوي الحاجة من أفراد المجتمع ، فشجعوه في ذلك .

يقول أبو يوسف : "أنه لما فتح الله على عمر بن الخطاب فارس والروم جمع أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فقال : ما ترون فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة ، وأجمع المال فإنه أعظم للبركة ، قالوا أصنع ما رأيت فإنك إنشاء الله موفق"[2]

عمل عمر على إيجاد مورد مالي ثابت للمقاتلين حتى يتفرغوا للجهاد في سبيل الله ، ففرضا لكل مقاتل راتب سنوي يغنيه عن ممارسة أي حرفة أخرى ، حيث خص المقاتلين الأوائل بالأفضلية في العطاء دون أن يغفل عن بقية المقاتلين الملتحقين حديثا ، ولم يميز بينهم في الانتماء العشائري أو مكانتهم .

"اعتمد عمر رضي الله عنه في توزيع العطاء بين الناس على مبدأ التفاضل وفق التدرج الآتي :

- فرض لمن ساهم في معركة بدر 5000 درهم .

- فرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجري الحبشة ومن شهد أحد 4000 درهم .

[1]- الوسيط في السيرة النبوية و الخلافة الراشدة ، ص349 - 350

[2]- المرجع السابق ، ص351

- فرض لمن شهد الحديبية 3000 درهم .

- فرض لكل من أسلم بعد فتح مكة وساهم في حروب التحرير 2000 درهم .

- فرض لأهل الأيام من أبناء القبائل التي شاركت في فتح مكة ، وحاربت المرتدين ، واشتركت في معركة القادسية 3000 درهم.

- فرض لروادف الذين التحقوا بالقتال بعد معركة القادسية و اليرموك عطاء تراوح ما بين 1000 درهم و200 درهم حسب حالة كل فئة .

ولم يقتصر العطاء على المقاتلين ، بل شمل فئات اجتماعية عدة ، وكان لكل منها عطائها الذي يتناسب مع وضعها الخاص ."[1]

المطلب الثاني : الضمان الاجتماعي و التقاعد

إن الإسلام هو الذي أوجد لأول مرة في تاريخ العالم فكرة الضمان الاجتماعي فقد قال تعالى: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[2] والإسلام -ولا فخر- هو الذي جعله (حقاً) وليس (إحساناً)... وكان الرسول الأعظم ﷺ يتولى تطبيق ذلك على أكمل وأدق ما ينبغي أن يكون ، وعلى مثل ما كان عليه الرسول ﷺ ، سار الخليفة الأول أبو بكر الصديق. ،إذ أنه كان كل شيء يجري بسيطاً في هذه الفترة ، لأن الدولة لم تتسع بعد ولم تكن هنالك أية نظم أو أية قواعد لتدوين ما يرد من أموال للدولة وما ينفق منها ، فلما جاء عهد عمر وازدادت الفتوح واتسعت الدولة ،واحتاجت تبعاً لذلك إلى أن تضع لنفسها من الأنظمة الجديدة ما يتلائم وحياتها الجديدة ، رأى هذا الخليفة أن يساير هذا التطور وأن يضع الأسس لهذه الدولة الإسلامية الناشئة ، فما هو إلاّ أن بدأ أول ما بدأ بإنشاء الدواوين على

[1]- الوسيط في السيرة النبوية و الخلافة الراشدة ، ص353

[2]- سورة الذاريات الآية 19

مثال ما كانت عليه في بلاد فارس والروم ، ومنع تمليك الفاتحين المسلمين أراضي البلدان المفتوحة وصمم أن تكون هذه الأراضي تابعة لأصحابها الأصليين ، على أن يؤدوا لبيت المال خراجاً سنوياً. لماذا كل هذا؟ لكي ينشئ للدولة الإسلامية نظاماً مالياً ثابتاً مرتكزاً على دعائم قوية ، ان هذا الإجراء المالي من جانب عمر بن الخطاب ﷺ أول مادة رئيسية يرسي بها قواعد برنامج يحقق كل ما تنطوي عليه كلمة ضمان اجتماعي من معنى !

لم يكن تدوين عمر للدواوين، وتأريخه للتاريخ، وتحريمه تمليك الأراضي المفتوحة ، وإصراره على تركها تحت يد أصحابها لكي تستفيد بيت المال من خراجها السنوي الوفير، لم يكن كل ذلك إلاّ تمهيداً لقيامه بأول عمل ضخم في ميدان التأمين الاجتماعي على أقوى القواعد والنظم مستلهماً في ذلك تعاليم الإسلام ،وما سبق أن بدأ به الرسول الكريم وتابعه فيه خليفته الأول أبو بكر الصديق ، إن التاريخ ليسجل بمداد الفخر والإعجاب أن عمر ابن الخطاب أول من وضع نظاماً كاملاً للضمان الاجتماعي، على أساس تعاليم الإسلام، وكان أسلوبه البالغ المدى من حيث الدقة والرأفة والحزم في تطبيق هذا النظام الكامل، من أروع ما تحدث به الناس في الشرق والغرب على مر العصور .

كانت المادة الأولى من مواد هذا النظام إنشاء الدواوين ، وتقييد أسماء الناس ، وفرض العطاء لهم جميعاً، على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، فلم يدع عمر جماعة من المسلمين إلاّ وفرض لهم من هذا العطاء،إن ما أعطاه عمر ﷺ للمسلمين إنما هو حقهم: وأنه أسعد بأدائه إليهم ،ثم إنه يرى أن في هذا العطاء زيادة عن حاجتهم، فيود لو أنهم يعملون على استثمار ما يزيد عن حاجتهم، من عطائهم ليبقى لأولادهم من بعدهم.. بمثل هذه الروح المثالية كان عمر يهتم بأمر المسلمين؛ وبمثل هذا العطف الخالص كان يطبق ضمانه الاجتماعي في غير امتنان وفي غير استعلاء.. فأي ضمان اجتماعي حديث يرتقي

إلى مستوى ذلك الضمان الاجتماعي العمري؟! بل أي حقوق للإنسان –في عصر يتبجح فيه المتبجحون بإعلان حقوق الإنسان– يمكننا أن نقول عنها إنها حقوق معترف بها تماماً، كما كانت عليه الحال في عهد عمر بن الخطاب.

بل أي عطف إنساني أبلغ من أن يذهب الخليفة بنفسه إلى القرى البعيدة، حاملاً معه سجلات العطاء، فلا تغيب عنه امرأة، بكر ولا ثيب. فيعطيهن في أيديهن، دون أن يفكر في أن يعهد بذلك إلى "باحث اجتماعي" أو إلى أي نوع من أنواع الموظفين المختصين ، حتى أهل الذمة شملهم عطاء عمر(رضي الله عنه) "مرّ بشيخ منهم يسأل على أبواب المساجد، فقال له: ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية في شبيبتك وضيعناك في كبرك، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يقوم بأمره."[1]

فهذا هو أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ﷺ فيما خلده له التاريخ في صفحاته من إيجاده لنظام العطاء ، أو كما نسميه اليوم "الضمان الاجتماعي" على اختلاف كبير واضح بين هذا وذاك.. بين نظام عمر، وأنظمة اليوم! ثم هذا هو عمر: في دقة رقابته لتنفيذ هذا النظام ثم دقة تحريه لما وراء تنفيذه إياه.. وأخيراً هذا هو عمر فيما كان يقوم به من جولاته الليلية وفيما كان يسوس به أمور المسلمين في أوقات الشدائد والأزمات مما يدخل كله تحت كلمة "ضمان" لا بالمعنى المعروف المصطلح عليه في هذا الزمن الأخير... وإنما في أوسع وأشمل ما تؤديه من المعاني الإنسانية "كلمة الضمان."

[1]– البلاذري ، فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، سنة 1978 ، ص16

المطلب الثالث : العمل في الكوارث

كان سيدنا عمر ﷺ يضطلع بتفريج الكوارث ، كما يضطلع بتدبير الحاجات إلى التعمير و التنظيم ، ففي السنة الثامنة عشر للهجرة فاجئه قحط الرماد المشهور ، وهو القحط الذي لا يقال في وصفهم أوجز من قولهم يومئذ أن الوحش كانت تأوي فيه إلى الإنسان ، وأن الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعفها لقبحها ، فنهض أمير المؤمنين لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب واستجلب القوة من كل مكان فيه مزيدا من القوة ، وجعل يحمل المؤونة على ظهره مع الحاملين إلى حيث يعثر على الجياع و المهزولين العاجزين ، وقطع على نفسه أن لا يأكل طعاما أنقى من الطعام الذي يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهورا لا يذوق غير الخبز و الزيت ، ونظر في كل شيء حتى في تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذي يرسله إليهم عن طريق عماله ، فقال لزبير بن العوام : " أخرج من أول هذا العير فاستقبل بها نجدا ، فاحمل إلي أهل كل بيت قدرت أن تحملهم ، ومن لم تستطيع حمله فمر لأهل البيت ببعير بما عليه ، ومرهم فليلبسوا كسائين ولينحروا البعير ، فليحملوا شحمه ، وليقددنا لحمه ، وليحزوا جلده ، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم ، وحفنة من دقيق ، فليطبخوا وليأكلوا حتى يأتيهم الله بالرزق ."[1]

" أما طاعون عمواس ، وهي مدينة قرب بيت المقدس انتشر بها الطاعون فسمي بها ، ثم انتشر في بلاد الشام ، وكان عمر يهم بالدخول إليها فنصحه عبد الرحمان بن عوف بالحديث النبوي الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : "إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وانتم فيه فلا تخرجوا فرارا منه ." فعاد عمر وصحبه إلى المدينة المنورة ، حاول عمر بن خطاب ﷺ إخراج أبي عبيدة بن الجراح من الشام حتى لا يصاب بالطاعون فطلبه إليه لكن أبى عبيدة أدرك مراده واعتذر عن الحضور حتى يبقى

[1]- عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، ص 119- 120

مع جنده ، فبكى عمر ، ويبدوا أن هذا الوباء انتشر بصورة مريعة ، عقب المعارك التي حدثت في بلاد الشام ، مات خمسة وعشرون ألف من المسلمين وقيل ثلاثين ألف من بينهم جماعة من كبار الصحابة أبرزهم أبو عبيدة بن الجراح ، وقد دفن في (عمتا) وهي قرية بغور بسان ، ومعاذ بن جبل الأنصاري ومعه ابنه عبد الرحمان ، ويزيد بنابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، و الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، وأبو جندل بن سهيل ، وقيل أن الطاعون أصاب البصرة أيضا فمات بشر كثير ، وبعد انحسار طاعون عمواس خرج عمر بن الخطاب من المدينة المنورة نحوا بلاد الشام عن طريق إيلة ، فلما وصلها قسم الأرزاق وسن الشواتي و الصوائف ، ووزع مواريث الذين ماتوا بعد أن حار أمراء الجند فيما لديه من المواريث بسبب كثرة الموت حيث طابت قلوب المسلمين بقدوم عمر بعد أن كان العدو قد طمع فيهم أثناء الوباء . "[1]

[1]- موقع قصة الإسلام ،مرجع سابق ، يوم 2012 /10/19

خلاصة الفصل :

إن الإدارة "فن قيادة الرجال" والرجال لهم مشارب شتى، ولا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة أن يقودهم إلا بالحكمة، والحكمة أن تضع كل شيء في مكانه، الغضب والحزم والشدة في المواضع التي تحتاج إلى ذلك، واللين والتسامح والرحمة أيضًا في المواقف التي تتطلبها ، فقد كان عمر ﷺ حكيمًا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، مما جعله مؤهلاً لحمل هذه الأمانة العظيمة؛ وهي إدارة الدولة الإسلامية في هذا الوقت من التاريخ الإسلامي العظيم ، في عصر الفاروق ﷺ شهد النظام الإداري نقلة حضارية كبرى تمثلت في مدى اهتمام الخليفة وعنايته الفائقة بالنظم الإدارية، فقد رسخت في عهده التقاليد الإدارية الإسلامية. وهذا يؤكد مرونة العقلية الإسلامية وقبولها لتطوير نفسها، وتمثل هذا في اهتمام الفاروق ﷺ بتنظيم الدولة الإسلامية إداريًّا، وخاصة أن الفتوحات الإسلامية قد أدت إلى امتداد رقعة الدولة الإسلامية في عهده ، كما اهتم بأمر الأمصار والأقاليم، ووطد العلاقة بين العاصمة المركزية والولاة والعمال في أجزاء الدولة الإسلامية ،كان عمر ﷺ شديدًا مع عمال الدولة الإسلامية وكان يوصيهم بأهالي الأقاليم خيراً و إذا استعمل العمال على الأقاليم خرج معهم ليشيعهم و يقتص منهم فإذا شكا إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه فإن صح عليه أمر بما يجب أَخْذه به وشهد عصره بالإضافة إلى ذلك تنظيمات إدارية متنوعة فوضع أساس بيت المال ونظم أمورها ، وكان يعس ليلاً، ويرتاد منازل المسلمين، ويتفقد أحوالهم بيديه، وكان يراقب المدينة ويحرسها من اللصوص والسراق، كما كان يراقب أسواق المدينة ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم ، وهو في هذا كله يتأسى بسنة رسول الله.